

تفسير البحر المحيط

@ 133 @ انتهى . وهذا ليس بجيد لأن دعا بالنسبة إلى مجيب الدعاء إنما يتعدى لمفعول به دون حرف جر قال تعالى : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } { أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } ومن كلام العرب دعوت الـ بمعنى دعوت الـ إلا أنه يمكن أن يصح كلامه بدعوى التضمن ضمن يدعون معنى يلجأون ، كأنه قيل فيكشف ما يلجأون فيه بالدعاء إلى الـ لكن التضمن ليس بقياس ولا يضار إليه إلا عند الضرورة ، ولا ضرورة عنا تدعو إليه وعلق تعالى الكشف بمشيئته فإن شاء أن يتفضل بالكشف فعل وإن لم يشأ لم يفعل لا يجب عليه شيء . قال الزمخشري : إن شاء إن أراد أن يتفضل عليكم ولم تكن مفسدة ؛ انتهى . وفي قوله : ولم تكن مفسدة دسيمة الاعتزال ، وظاهر قوله : وتنسون ما تشركون النسيان حقيقة والذهول والغفلة عن الأصنام لأن الشخص إذا دهمه ما لا طاقة له بدفعه تجرد خاطره من كل شيء إلا من الـ الكاشف لذاك الداهم ، فيكاد يصير الملجأ إلى التعلق بالـ والذهول عن من سواه فلا يذكر غير الـ القادر على كشف مادهم . وقال الزمخشري : { وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } وتكرهون آلهتكم وهذا فيه بعد . وقال ابن عطية : تتركونهم وتقدم قوله هذا وسبقه إليه الزجاج فقال : تتركونهم لعلمكم أنهم في الحقيقة لا يضررون ولا ينفعون . وقال النحاس : هو مثل قوله { لَقَدْ * عَاهَدُوا نَا * إِلَا * مِن رَّبِّهِ * قَبْلُ * فَذَسَى * } . وقيل : يعرضون أعراض الناسي لليأس من النجاة من قبله ، و { مَا } موصولة أي وتنسون الذي تشركون . وقيل : { مَا } مصدرية أي وتنسون إشراككم ومعنى هذه الجمل بل لا ملجأ لكم إلا الـ تعالى وأصنامكم مطرحة منسية قاله ابن عطية . .

{ وَلَقَدْ * أَرْسَلْنَا * إِلَا * أُمَمٍ * مِّن قَبْلِكَ * فَأَخَذْنَا * هُم * بِالْأَيْدِي * وَالضَّرَ * لَعَلَّ * هُم * يَتَضَرَّ * عُونَ } هذا تسلية للرسول صلى الـ عليه وسلم (وإن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلوب حتى هم إذا أخذوا بالبلايا لا يتذللون ولا يسألونه كشفها ، وهؤلاء الأمم الذين بعث الـ تعالى إليهم الرسل أبلغ انحرافاً وأشد شكيمة وأجلد من الذين بعث إليهم رسول الـ صلى الـ عليه وسلم) إذ خاطبهم تعالى بقوله { قُلْ * أَرَأَيْتُمْ * كُم } الآية . وأخبر أنهم عند الأزمات لا يدعون لكشفها إلا الـ تعالى ، وفي الكلام حذف التقدير { وَلَقَدْ * أَرْسَلْنَا * الرُّسُلَ * إِلَا * أُمَمٍ * مِّن قَبْلِكَ } فكذبوا فأخذناهم وتقدم تفسير البأساء والضراء والترجي هنا بالنسبة إلى البشر أي لو رأى أحد ما حل بهم لرجا تضرعهم وابتهالهم إلى الـ في كشفه ، والأخذ الإمساك بقوة وبطش وقهر وهو هنا مجاز عن متابعة العقوبة والملازمة والمعنى لعاقبناهم في الدنيا

{ فَلَاوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُتْسُنَا تَضَرَّعُوا } { لَوْ لَا } هنا حرف تحضيض يليها الفعل ظاهراً أو مضمراً أو يفصل بينهما بمعمول الفعل من مفعول به وظرف كهذه الآية ، فصل بين { لَوْ لَا } و { تَضَرَّعُوا } بإذ وهي معمولة لتضرعوا ، والتخضيض يدل على أنه لم يقع تضرعهم حين جاء البأس فمعناه إظهار معاتبة مذنب غائب وإظهار سوء فعله ليتحسر عليه المخاطب وإسناد المجيء إلى البأس مجاز عن وصوله إليهم والمراد أوائل البأس وعلاماته . . { وَلَـكِنْ قَسَّتْ قُلُوبُهُمْ } أي صلبت وصبرت على ملاقة العذاب لما أراد الله من كفرهم ، ووقوع { لَـكِنْ } هنا حسن لأن المعنى انتفاء التذلل عند مجيء البأس ووجود القسوة الدالة على العتو والتعزز ف وقعت { لَـكِنْ } بين ضدين وهما اللين والقسوة ، وكذا إن كانت القسوة عبارة عن الكفر فعبر بالسبب عن المسبب والضراعة عبارة عن الإيمان فعبر بالسبب عن المسبب كانت أيضاً واقعة بين ضدين تقول : قسا قلبه فكفر وآمن فتضرع .